التمهيد

الغربة في اللغة

لو رجعنا إلى المصادر اللغوية ومعنى الغربة في اللغة نجد وبلا شك ارتباطها بالبعد المكاني عن الوطن بالدرجة الأولى، وبالتالي تنشأ عنه الحالات الأخرى من التفكير والعذاب والشوق وما إليها !

قال ابن منظور في معنى الغربة (والغربة والغرب : النوى والبعد).

والغربة والغرب : التروح عن الوطن والاغتراب، والغريب عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غريبة والاغتراب : افتعال الغربة .. وأغرب الرجل صار غريباً [1]

هذا المعنى الذي يحيط ويؤطر ظاهرة الغربة المكانية يعتبر الأساس في البواعث الأخرى التي يمليها التغر ب المكاني على نفسية الغريب من حرمان وشوق إلى الأهل والوطن، وهو بمفهومه المبسط نجده ماثلاً في الوجدان الإنساني الذي يحس بالحرمان والبعد، وبالتالي إلى الحزن الذي لا يجد له من وسيلة إلاَ الهيام وإطلاق الصرخات والشكوى والانطواء تحت وطأة العزلة والابتعاد عن الواقع الذي يعيشه .

وقد تصل حالات البعد والانعزال عن الواقع إلى أعلى درجات العزلة حيث تترسخ في النفس ويبدأ النفور ماثلاً في شعور الفرد وأخيراً الانفصال عن الذات الإنسانية .

(وهذا ناجم بصورة رئيسية عن العجز بالتوفيق بين طبيعته الإنسانية الخاصة ومسؤوليته عن مثل أعلى نظري، فيشعر لذلك بالانفصال بين ذاته الداخلية وبين الدور الذي يقوم به) [1]

---

١ - لسان العرب ١/ ٦٣٨/ ٦٣٩/ ٦٤٠

مفهوم الغربة عند الأدباء والفلاسفة :

لقد اهتم الأدباء والمفكرون منذ القدم بمفهوم الغربة والتغرب، وأحاطوه بهالة من الاهتمام والمعاني لما له من حالات إنسانية تؤثر في نفسية المتغرب وذاته الداخلية ؛ لأن نبرات الحزن والقلق لدى الغريب، وحنينه إلى أهله ومهبطه الحقيقي له تأثير دقيق على حواسه، وقد أعطت الدراسات الإنسانية في الإسلام وقبله أولوية لهذا الموضوع المهم، وأبدعت في تفصيل هذه الظاهرة في الأدب العربي : مثل أدب الغرباء لأبي الفرج الأصبهاني الذي يقول فيه : (لقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليَّ وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار .. من قال شعراً في غربته ونطق عمَا به من كربته، وأعلن الشكوى بوحدته، إلى كل متشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذا كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد ...) [٢]

وقد سبق للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الكتابة عن الغربة في كتابه (الحنين إلى الأوطان) وقد نشرته دار الرائد- بيروت ط٢ ١٩٨٢ .

وإلى جانب كتاب الأصبهاني ظهرت كتب عديدة تؤرِّخ معنى الغربة والاغتراب في الزمن القديم وتذكر مساوئها وعذاباتها وما تمليه من قلق وحزن على نفسية المتغرب عن أهله ووطنه، فهذا معجم البلدان لياقوت الحموي الذي رأى فيه شوق الغريب وحنينه لأهله ووطنه مادة أساسية لذكر هذه العاطفة الجياشة والانتماء إلى الوطن!!

---

١ - شكسبير والإنسان المتوحد ٩٨

٢- كتاب الغرباء .. ٢٣

إضافة إلى ما تقدم لقد اهتم المؤرِّخون والفلاسفة الأجانب بهذا المفهوم أيضاً وأعطوه أولوية خاصة، فهذا المفكر جان جاك رسو من الأوائل الذين استعملوا مصطلح الغربة .. لقد أدرك أنه عندما يتولى بعض النواب تمثيل الشعب، فإن هذا الشعب لا يمارس سيادته بنفسه، ويبدأ بالانعزال داخل وطنه ويشعر بالغربة [1]

وغيره (هيغل) الذي استخدم هذا المفهوم أيضاً بصورة مزدوجة (فهو يراه في بعض معالجاته في سياق الانفصال، وفي مواقع أخرى من بحوثه يعطيه معنى التخلي أو التنازل [2]

وغيرهم كثير ممن كتبوا عن الغربة وأرَّخوا لها معاني بما يتصل بمفهومها الدقيق لا أريد أن أتعمق بكتابات الأوَّلين عن معنى الغربة والاغتراب بقدر ما أريد أن سحب فكر القارئ إلى ما لاقاه أدباؤنا وشعراؤنا في العراق الجريح، وما ألّم بهم نتيجة تغربهم عن شعبهم ووطنهم وأهلهم وما أثر هذا الاغتراب في نفسيتهم وإبداعهم، بل وفي أحلامهم التي كانوا يتمنون بها لو يضمهم شبر واحد من تراب الوطن العزيز ليكون لهم لحداً آمناً يرقدون به في آخر العمر !!

نعم، إن الغربة وما أثرت في وجدان شعرائنا وبرزت واضحة جلية في معلقاتهم وقصائدهم وجل كتاباتهم، ما هي إلّا عنواناً بارزاً يبين لنا معنى الغربة وما لها من تأثير وحزن وقلق وبؤس وشوق إلى الأهل والوطن، وأشد ما يعانيه المغترب في وقتنا هذا وما يلم به فعلاً هو عدم الاستقرار والركون في مكان واحد، بل كانت عملية الترحال والتنقل في أصقاع كثيرة بحثاً عن الأمن والحياة الشريفة، حيث كان الفقر حليف الكثير منهم ممن لا يجد رغيف الخبز ولا الدواء ولا الراحة والاستقرار، إضافةً إلى الظلم وملاحقة الرقيب

---

١ - ضرورة الفن ١٠٥

٢ - عالم الفكر ..٢٠

الأمني الذي يتحسس كل صفاتهم وسكناتهم وحتى البحث في أحلامهم، وهذا ما حدث فعلاً في مغتربهم العربي من الدول التي كانت حليفة لحكم صدام الدكتاتوري المتعسف !!

وهكذا برزت غربة الشاعر العراقي في كثير من الأعمال الشعرية والأدبية التي أرخت البعد المكاني والنفسي عن الأهل والوطن وتأثيرها في نفسية المغترب، حيث ترتبط ذات الشاعر البعيد عن أهله ووطنه مع العالم الخارجي في صور شتَى كالنخيل والأنهر والأزقة والمدن وما إليها فكوَّن مادته الفنية التي تغني إبداعه !!

وتُعتبر الغربة والبعد عن الوطن سجناً مظلماً يتكور فيه المغترب حيث لا يجد سبيلاً إلى التفرد والاتصال بأهله وذويه بالرغم من تنقله بهذه البقعة التي يعيش عليها في منفاه سوى الحنين والشوق الذي يذرفه ويغني مقاطعه الشعرية به .

وبالتالي أصبح الشاعر المغترب مجبراً على تحمل ما هو فيه من الواقع الذي يعيشه ويؤلمه في آن واحد، مُجبراً على أن يحيله إلى عالم من الحزن والبؤس، عالم محمل بالهموم المكبلة بالقيود، ليرى نفسه حاملاً لها ماشياً بكل عفوية واتزان يصورها لنا بهذه الصور الجياشة التي تهز الوجدان وتؤلم النفس، وهذا ما لمسناه في كل الصور البلاغية التي تعرضنا لها ويتعرض لها الدارسون لشعراء الغربة ممن أفنوا زهرة شبابهم .

أسباب الغربة :

ظهرت الغربة في العهد القديم وتعددت أسبابها فيما بعد في العصور التي تلتها، حيث برزت أكثر معالمها في بداية العصر الإسلامي، إذا ما أردنا البحث فيها في العصور القديمة.

فالهجرة بسبب اعتناق الدين الجديد وتسلط المشركين على الأوضاع العامة، السياسية والاجتماعية في مكة المكرمة أنذاك وظلمهم لمعتنقي الدين الإسلامي، لذاك هاجروا إلى المدينة يومها خوفاً من هذا الاضطهاد من جهة، ومن أن يردوهم عن دينهم الذي اعتنقوه وسرى في وجدانهم من جهة أخرى، إضافة إلى العادات القبلية الأخرى التي مارست النفي

وتأصلت جذوره فيها منذ القدم، وفرضت الهجرة على مرتكبي الأخطاء من القبيلة لعدة سنين يتحمل صاحبها أنواع العذاب والشقاء نتيجة البعد عن الأهل والديار.

كذلك بسبب المعارك الطاحنة التي تنشأ بينهم على المراعي والكلا والعادات القبلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، ودخول المرأة كأحد هذه الأسباب وهذا التناحر وبالتالي فرض النفي، واستعمار القوي الضعيف، حيث يلجأ الثاني إلى الهجرة والتغرب خوفا من القتل والتعسف !!

وبرزت معالم الغربة أكثر عند الفتوحات الإسلامية ومكوث الجند في أصقاع بعيدة عن الأهل والديار لغرض عملية الفتح ونشر الدين الإسلامي الجديد، وهذا ما يعد كأحد أسباب الغربة المكانية والنفسية معاً لما فيها من تأثير واضح في نفسيات الجند وهم يعانون البعد والشوق إلى أهلهم وذويهم .

كذلك من الأسباب الأخرى للغربة فرض السجن على الكثير ممن يرتكبون الأخطاء بحجة أو بأخرى، فيمكثون فيه لعدة سنين يلاقون خلالها أنواع العذاب والشوق إلى الأهل والديار .

كذلك من الأسباب الأخرى للغربة الفقر الذي يعاني منه الكثير من الناس في المجتمعات الإنسانية، حيث يلجأ الكثير إلى ترك الأهل والأوطان بحثاً عن الحياة الرافهة والسعيدة وجلب الرزق إلى عوائلهم وتحسين الحالة المعاشية لهم .

فمهما تعددت أسباب الغربة وتغيرت أنواعها فنحن نجدَ السير في مجاهل هذه الكلمة (الغربة) لنبين في هذه الدراسة المبسطة ليس الأسباب واردة الذكر فحسب، بل الغربة التي تحملها الكثير من أدبائنا وفنانينا في عصرنا هذا ممن فرض عليهم النفي والهجرة قسراً خوفاً من التعسف والظلم والسجن، مما حدا بهم أن يتركوا أوطانهم وذويهم، وهذا ما ظهر واضحاً على نتاجهم الأدبي الذي نحن الآن بصدده !!

تأثير الغربة في الإبداع:

ونحن نتحدث عن الغربة وما لها من تأثير في إبداع الشعراء والأدباء يبرز لنا هذا التداخل والصراع الذي ينطوي به الشاعر والأديب وهم يلتحفون قصائدهم وكتاباتهم التي تتحدث عن الواقع المر الذي يعيشونه هناك في ديار الغربة بعيدين عن الأهل والوطن، وعن المآسي التي يتحملها شعبهم الذي خلفوه وراءهم يئن من ظلم الطغاة وما يتحمله ذويهم من بطش واعتداء على عوائلهم بغير مبرر غير أن هجرة بعض أبنائهم خوفاً من السجن والقتل المتعمد الحاقد !!

فهذا الشاعر الكبير عبد المحسن الكاظمي يثبت لنا في هذه الأبيات حنينه إلى وطنه وشعبه ومدينته (بغداد) التي فارقها سنين عديدة عند لجوئه إلى مصر ووفاته فيها بعيداً عن أهله وذويه ومحبيه !!

((أبغداد لا فاتتك منَي تحية

يفسر منها ما أراد المفسر

حنيناً إلى تلك البقاع إلى التي

تطيب إلى تلك التي هي أطهر

حنيناً إلى الزورا حنيناً إلى الصبا

حنيناً إلى العود الذي هو أنظر

حنيناً إلى تلك القرى وإلى الذي

يعيش بهاتيك القرى ويبكر

حنينـــــــــــاً إلى أرض حييـــــــــــت بتربهـــــــــــا

ويـــــــا ليـــــــتني في ذلـــــــك التـــــــرب أقـــــــبر

ديوان الشاعر عبد المحسن الكاظمي !!

فهو رغم هذا الشوق الجياش وعذاب الغربة هناك يتمنى لو أن يحصل على هذه الأشبار الخمسة من الأرض التي يقبر فيها وهو في وطنه الذي تغرب عنه وهاجره قســـراً خـــوف الطغاة !!

وهذا شاعر العرب الكبير محمد مهدي الجواهري الذي ابتعد عن العراق العزيز عليـــه بفعل الضغوط التي مارستها السلطات الإمبريالية والدكتاتورية أنـــذاك وأدت إلى رحيلـــه وغربته حيث تظهر على قصائده التي كتبها في المنفى روح الغربة والحرمان والشـــوق إلى الأهل والأوطان .

إلاَ أنه كان طوداً شامخاً يتحدى كل الخطوب والنوائب والإجرام الذي يمارس ضـــده بالوقوف كنخيل العراق عملاقاً ماردا مستهزئا !!

ما حطمت جلدي يد النوب

لكن تحطمت النوائب بي

قل الخطوب إليك فابتعدي ألمست بي ضعفاً لتقتربي ؟

هتفت لي الأهوال تطلبني فبرزت حراً غير منتقبي أنا صخرة ما أن تخوف هذي الرياح الهوج بالصخب أن الليالي حاولت ضرعي فوجدنني متعسر الحلب [1]

---

١ - ديوان الجواهري

وها هو العملاق الكبير إذْ يتغنى برائعته الخالدة التي يذكرها وهو في غربته التي يعاني منها ويبث شوقه إلى وطنه وأهله ودجلته الحبيبة، شامخة الذرى، يذكر آلامه وأشواقه :

حييت سفحك عن بعد فحييني

يا دجلة الخير يا أم البساتين

حييت سفحك ضمآناً ألوذ به

لوذ الحمائم بين الماء والطين

يا دجلة الخير يا نبعاً أفارقه

على الكراهة بين الحين والحين إنيَ وردت عيون الماء صافية

نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني [1]

فهو يؤكد على مفارقته وطنه وما فيه على الكراهة أي أنه فارقه قسراً وظلماً، مما يؤكد شوقه وحبه المتواصل الذي مهما شرب من عيون الماء من غير بلده ودجلته ومهما كانت صافية فلم تكن لترويه وهو في هذه الغربة الطويلة القاسية عليه !!

وهذا سفير قصيدة الشعر العراقية إلى العالم الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي قارع الغربة وتمنطقت في كيانه ونفسه حتىَ أصبح يناغي الليل بشعره ويذكر الأرض التي احتوته في وطنه مع ناسه ومحبيه :

((تحت جنح الليل ..

والصمت،

---

١ - ديوان الجواهري ج ٥

وأعماقي الكئيبة،

وعبير الأرض والليمون

والماضي وحزني ،

لم يعد يوقظ أحلام الصبا المخذول فيَا،

كان ضوء..

كان قبر ،

بعيداً كان عنَي

غير إنَي كنت أقوى،

كنت من نفسيَ أقوى ،

كنت أهوى لو تلاقينا على ذاك الضياء)) [1]

وكذلك الشاعر الرائد بدر شاكر السياب الذي عاش يقارع الغربة من جهة، والمرض والعوز من جهة أخرى وهو يئن لفراقه إلى أهله ووطنه، يرتل آيات الحب للعراق والظلام فيه، وشاطيء النهر الصغير في جيكور القرية المسبلة جفونها على أمواج شط العرب، والتي احتضنته في طفولته وصباه، بويب الحبيب، فها هو يناغي ولده العزيز غيلان ويذكر بهـــا هذا النهر الصغير !!

((ينساب صوتك في الظلام إليّ ،

كالمطر الغدير ،

---

١ – ديوان الشاعر عبدا لوهاب البياتي .

ينساب من خلل النعاس ..

وأنت ترقد في السرير ،

وأظل أسبح في رشاش منه

أسبح في عبير ،

فكأن أودية العراق ،

فتحت نوافذ من رؤاك

على سهادي ،

كل وادي)) [1]

ثم ينطلق إلى أهله في جيكور ونهرها الصغير بويب متـــذكراً وقفاتـــه علـــى جرفيـــه الصغيرين:

((أنا في قرار بويب أرقد ،

في فراشي من رماله ،

من طينه المعطور،

والدم في عروقي في زلاله ..

ينسال كي يهب الحياة

لكل أعراق النخيل)) [1]

---

١ - ديوان الشاعر بدر شاكر السياب

وتوالت أغاني المتعبين المعذبين في الغربة وما أثرت على قصائدهم الحزينة المحملة بالبؤس والغربة والضياع ومفارقة الأهل والأوطان، فهذا الشاعر بلند الحيدري في قصيدة له من ديوانه (خطوات في الغربة) يقول :

((هذا أنا ملقى هناك حقيبتان،

وخطىً تجوس على رصيف

لا يعود إلى مكان ،

من ألف ميناء أتيت ،

ولألف ميناء أصار،

وبناظري ألف انتظار ،

لا .. ما انتهيت فلم تزل حبلى كرومك يا طريق..

ولم تزل ،

عطشى الدنان،

وأنا أخاف ..

أخاف أن تصحو ليالِيَ الصموتات الحزان))[٢]

---

١ – الديوان بدر شاكر السياب

٢ – ديوان خطوات في الغربة بلند الحيدري

وغيرهم كثير ممن عانوا الغربة وشربوا كأس مرارتها وشجوها وعذابها وبعدها عن الأهل والوطن، مما أثرت في نفسياتهم وقصائدهم، فأصبحوا والغربة صنوين لا يفترقان حتى مات الكثير منهم وهم يتمنون العودة والموت في بلد يضم جثامينهم، ماتوا بحسرة هذا الحلم الذي طالما أرق أجفانهم وهم أحياء يتذكرون الوطن ويكتبون مأساته وينشرونها على أهل الأرض، وما زال الباقون منهم ينظرون إلى ذلك الحلم أيضا، يئنون بأصوات مسموعة هادرة قوية تؤرِّق سامعيها وتفتت قلوب قارئيها، لعلنا وإياهم نرى أصحاب الضمائر الحية أن تستنقذ الباقين منهم على قيد الحياة وتمد لهم حبل النجاة من هذه الغربة القاسية، وإنا على ذلك من المنتظرين

رحم الله أمواتنا من هذا الفصيل وأسكنهم فسيح جناته، ورحم الباقين منهم وجمعنا وإياهم تحت خيمة العراق الكبير !!